ديمومة نصّ دوستويفسكي في عالمنا المعاصر

حسين علي خضير

كلية اللغات – جامعة بغداد

كلنا يعلم أن نص دوستويفسكي يستمد جذوره من الواقع الروسي الفريد، الذي له طابع يختلف عن بقية الشعوب، ولكنه في ذات الوقت عابر للحدود، ومن هنا لابد أن أوضح أسباب ديمومة هذا النص إلى يومنا هذا:

أولاً، إن أبطال دوستويفسكي منغمسين في المعاناة، وهذه المعاناة تصبح غلافهم الخارجي إذا صح التعبير، فمنهم من يكافح من جراء ذلك، ومنهم من يحيط نفسه بالشرنقة، لكي يحمي نفسه من الظروف الطارئة.

ثانياً، البعض منهم متمردون على الواقع ويحاولون إثبات ذاتهم بشتى الطرق، فعلى سبيل المثال، كلنا يتذكر جيدًا كيف عانى راسكولينكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" من فكرة قتل المرابية، وتردد كثيرًا قبل أن يقوم بهذا الأمر، وفي آخر المطاف استجابة إلى رغبته المنشودة، والهدف من ذلك كما قال الكاتب الروسي فلاديمير نابوكوف: "هو أقدم على جريمة القتل هذه حتى يثبت لنفسه إنه إنسان غير عادي".

ثالثاً، هم صورة مصغرة للخير والشر، فلو رجعنا إلى راسكولينكوف مثلاً، لوجدنا أن هذا البطل رغم الجريمة التي ارتكبها، ولكنه في هذه الرواية سعى جاهدًا إلى تقديم المساعدة إلى الآخرين.

رابعاً، وفيهم من يدعو إلى محبة كونية، كما يقول الراهب زوشيما في رواية "الأخوة كارمازوف": "أيها الإخوة، لا تخافوا من خطيئة الناس، أحبوا الإنسان في خطيئته، لأن هذا أشبه بالحب الإلهي وهو ذروة المحبة على الأرض. أحبوا جميع مخلوقات الله، وكل حبة رمل، وكل ورقة، أحبوا كل شعاع الإلهي. أحبوا الحيوانات، أحبوا النباتات، أحبوا كل شيء. وحين تحبون كل شيء ستدركون سر الله في الأشياء. وحالما تدركون محبة الأشياء، فكل يوم سوف تبدؤون بلا كلل إدراك الكثير من الاشياء، وفي النهاية سوف تقعون في حب هذا العالم كله". فلو تمعنا في هذا النص نجد أن دوستويفسكي يحلق خارج عالمه الروسي، ويكون نصهُ ذو بعد عالمي، لأنه يطلب من البشرية محبة كل شيء في هذا الكون، فهذا التنوع الفريد يجعل من نص دوستويفسكي متغير وغير ثابت وقد تخطى حدود الواقع الروسي، وأصبح نصًا عالميًا. ومن هذا المنطلق نجد نص دوستويفسكي فريد من نوعه، لا مثيل له ولا مشابه له في النصوص الأدبية الأخرى، التي أبطالها يتقوقعون في داخل ذواتهم، أما أبطال دوستويفسكي صحيح إن أغلبهم مرضى نفسيًا، ولكنهم يعرفون مرضهم جيدًا ويعانون من هذا المرض ولكنهم لا يرتضون بالعلاج البطيء بل يسعون إلى استئصال هذا المرض أو تمرد عليه بطريقة مغايرة، لذلك جميع هذه الأسباب وغيرها هي من ساعدت على ديمومة نص دوستويفسكي في عالمنا هذا.